

قراءة في [المنطلقات]

الجزء ٣ من نظرية الثورة العربية للدكتور عصمت سيف الدولة

منى سليم

أتمنى أن تكون مشاركتي فرصة للتواصل الفكري البناء مع أبناء الأمة العربية خاصة جيل الشباب الذي انتمى له .. أتحدث بلغته .. وأعيش أفكاره.

وأسعى إلى أن اعرض - في تبسيط أتمنى أن ينأى عن الإيجاز المخل - لركن هام من أركان هذا الفكر الذي وضعه صاحبه لهدف واحد هو نصرته وتطوير هذا المجتمع بشكل علمي وجاد، وأعتذر بدايةً عن أي تقصير.

أقدم هذا بوصفي :

قارئة لعصمت سيف الدولة وابنة هذه المدرسة الفكرية

منى سليم

قدم د.عصمت سيف الدولة رؤيته في التغيير أو نظرية الثورة العربية في ٧ أجزاء هي :
الأسس ١ - الأسس ٢ - المنطلقات - الغايات - الأسلوب - الطريق إلى الاشتراكية والوحدة - الطريق إلى الديمقراطية.
وتعتبر تلك المجموعة المتكاملة هي صلب الفكر العصمتي الذي يدور في فلك محدد وهو كيفية تغيير الواقع العربي إلى الأفضل.

ملاحظات أساسية

اهتم الكاتب خلال الأجزاء السبع بإتباع أسلوب وتقاليد البحث الأكاديمي العلمي، دون أن يشعر القارئ بجدّة وصرامة الأسلوب الأكاديمي.
فبدأ بعمل مسح للتراث البشري ثم حدد المشكلة ، ووضع الفروض، ووصل للاستنتاج أو قانون وبدأ في تطبيقه لاختبار صحته نظرياً وترك لنا اختباره بالممارسة.
ويعتبر هذا العمل واحد من قلائل في المكتبة العربية اهتمت بتقديم رؤية شاملة والكتابة عن أهمية المنهج وكيفية تطبيقه.
ومحاولة لتكثيف وتركيز أهم ما جاءت به النظرية، نناقش الكتاب الثالث " المنطلقات"، وسبب اختياره انه:

١ - يعرض بشكل مكثف ومركز الفكرة المنهجية التي يقوم عليها العمل وتسمى "جدل الإنسان" .

ويقدم الكاتب جدل الإنسان على انه أسلوب علمي أو منهج اجتماعي يتم وفقاً له تفسير حركة تطور المجتمعات، ومن ثم يمكن إتباعه (عند فهمه) لتفسير الظواهر والمستجدات بالواقع العربي و الوصول إلى تغيير هذا الواقع في إطار ما تسمح به إمكانياته وما يحقق المصلحة الموضوعية التي تحدها هي أيضا ظروف نفس الواقع.

٢ - عرض الكاتب أيضا للتراث البشري المتراكم في رؤى التطور والتغيير الاجتماعي، عرض كل منهج على حدى وقدم نقد له على المستوى النظري وعلى مستوى التجربة أيضا.

٣ - ولإتباعه أسلوب البحث العلمي، ينهي الكاتب القسم الأول من كتاب المنطلقات مع صياغة منهج جدل الإنسان في صيغته الفردية والاجتماعية ، ثم ينتقل لمرحلة الاختبار النظري فيبدأ بتحديد أركان أى نظرية لتغيير أى مجتمع في أى مرحلة زمنية وهى " المنطلق + الغاية + الأسلوب، ويتوقف بنا لبيان منطلقات مجتمعنا ويصبغها في سؤال واحد يقول .. من نحن..؟
ويقول بنهاية بحثه ووفقاً لمنهج جدل الإنسان (نحن امة واحدة لشعب عربي واحد يعانى من التجزئة والتسلط والامبريالية).

نبدأ الآن العرض، مع محاولة تصنيف مواد الكتاب وفقاً للمحددات العلمية التالية (قدر المستطاع):

١- المدخل الفكري والمقدمة.

٢- مشكلة البحث.

٣- مسح التراث البشرى السابق.

٤- نقد هذا التراث.

٥- هدف البحث.

٦- مفاهيم ومصطلحات.

٧- الأسئلة والفروض.

٨- الاستنتاج والقانون.

٩- التطبيق.

١- المدخل الفكري:

يبدأ الكاتب مع أهم المشكلات التي يطرحها واقعا العربي وهى التحرك للتغيير دون وجود نظرية نهدي بها.

فيقول أن إيجاد نظرية أمر هام بمعنى أن نحدد منطلقات واقعا والغاية التي نريد الوصول لها وأسلوبنا لذلك، ولكن (ذلك) لا يعنى أن نجمع كل ما يقع تحت أيدينا من حقائق لتكون منطلقات، أو أن نحشد كل أحلامنا لتكون غايات، وان نجمع أدواتنا قديمة وحديثة لتكون أسلوب.

فالأمر يتعلق بفهم حركة تطور المجتمع البشرى والقواعد والقوانين التي تتحكم في ذلك لأن إحداث تغيير يلزمه فهم منطق التغيير أو بمعنى أدق تحديد منهج التغيير .

وخلال تاريخ البشرية نشأت عدة مناهج بدأت جميعها من إشكالية أساسية وهى :
محاولة اكتشاف القوانين التي تخضع لها حركة المجتمع ومحاولة معرفة موقف إرادة الإنسان وحرية من تلك القوانين، وانطلقت أغلبها من فرضيات على ضوءها وضعت نظريات غيرت شكل العالم، ومن خلال

طرح تلك المناهج وتقديم نقد لفروضها ومحاولة تعدى القصور والتطوير يمكن تحديد المشكلة البحثية التي يأخذنا الكاتب معها في :

المشكلة البحثية :

في ضوء التناقض الواقع بين إمكانية وجود قوانين حتمية تحكم حركة الأشياء والظواهر في المجتمع من الماضي للمستقبل من ناحية، وبين حرية الإرادة الإنسانية من ناحية أخرى ، يحاول الباحث من خلال رصد وتحليل المناهج السابقة وتطويرها والإضافة إليها للوصول إلى المنطق والقانون الذي وفقاً له له يتطور المجتمع البشرى مما يساعد على وضع نظريات التغيير لواقع معين بزمن معين.

أهم الأسئلة التي تطرحها المشكلة أو التناقض:

- ١- هل الواقع البشرى للتغيير؟
- ٢- ما المقصود بعملية التغيير؟
- ٣- هل هو قطع مستمر الاستمرار التلقائي للواقع؟
- ٤- وان كان .. هل هذا القطع يحدث نتيجة تدخل إرادة الإنسان أم نتيجة تأثيرات أخرى؟
- ٥- ما هو المتغير المستقل وما هي المتغيرات التابعة في حركة تطور المجتمع البشرى؟
- ٦- وهل تخضع تلك التغييرات في حركتها لقوانين؟
- ٧- ما هي قوانين التي تحكم حركة المجتمع البشرى؟
- ٨- ما هي شروط فعاليتها؟
- ٩- هل يتوقف حدوث التطور على استيعاب الإنسان لتلك القوانين؟ هل يتوقف دوره على استيعابها؟

مسح التراث السابق : "مناهج التغيير في التاريخ البشرى"

حصر الكاتب أشهر وأهم مناهج التغيير العالمية، حدد المقصود منها وقدم أوجه القصور في النظرية والممارسة :

١- المنهج الليبرالي:

اتجه هذا المنهج في سبيل حل التناقض الشهير إلى تبنى فرضية تقول بخضوع المجتمع البشرى في حركته لشروط القانون الطبيعي.

ووفقاً لهذا القانون (الذي تعتمده العلوم التطبيقية) فحركة المجتمع البشرى تحدث بشكل طبيعي تلقائي نتيجة عمل كل فرد على تغيير مساره وتحقيق مصلحته، وبهذا يتصف القانون بصفتين أساسيتين:

- ١ - انه حتمي: يحدث باستمرار بغض النظر عن إدراك الفرد له.
- ٢ - طبيعي، أى أن مصدر حتميته كونه تلقائي.

٢ - مناهج التطور الجدلية:

هي تلك المجموعة من المناهج التي خرجت للنور وهي تدور حول فكرة أساسية تقول: أن حركة المجتمعات تتطور عبر الزمن وان هذا التطور يحدث نتيجة الجدل في كيان يضم نقيضين فينتج عنهما شيء ثالث أكثر تطوراً.

والتطور هو : إذا انطلقنا من أن الواقع ليس إلا الحصيصة الأخيرة وان حركة الأشياء والظواهر من الماضي للمستقبل ليست انتقال بل نمو عبر الزمن أى تطور.

أول من تحدث عن فكرة الجدل هو الفيلسوف الالمانى هيغل ، وتلته عصور أخرى تأثرت بالفكرة. واعتمدت تلك المناهج في تفسيرها للنمو عبر الزمن على أربع قوانين ، الثلاث الأولى منها هي قوانين الحركة لنيوتن:

- ١- الحركة الدائمة
- ٢- التأثير المتبادل
- ٣- التغيير المستمر

أما القانون الرابع فيتعلق بدرجة أكثر تقدما وهي الحركة عن قصد بهدف تحقيق إضافة وهو معنى التطور.

وتتفق تلك المناهج في أن التطور في المجتمع البشرى يحدث نتيجة حركة جدلية. ويعرفوا "الجدل": على انه تناقض يحدث داخل كيان واحد فينتج عنه شيء ثالث أكثر تطور من كلاهما، وهذا الشيء يحمل داخله تناقض آخر .. وهكذا.

أما الاختلاف بين مناهج التطور، فجاء عند سعى كل منهم للإجابة على هذا السؤال:

أين يكمن الجدل؟

وضع كل منهج فرضيته وحاول إثبات صحتها، وهكذا جاءت النتائج على المستوى النظري والممارسة.

١- الجدلية المثالية:

قال هيغل أن الجدل يحدث في الفكر المطلق، و أن اية فكرة مطروحة هي نتيجة جدل بين فكرتين في اتجاه الفكرة الكبرى التي لا يمكنهم التطور إلا في اتجاهها لأنهما بشكل أو بآخر جزءاً منها.

ووفقاً لتلك الفرضية، يكون أى قرار أو مقترح في سياسية أى دولة هو صحيح لأنه تطور جدلي في طريق الفكرة الكبرى والتي ربط هيغل إلى حد ما بينها وبين الإله وقداسته.

٢- الجدلية المادية :

نادى بها ماركس، وقال أن الجدل يحدث دائما داخل المادة حيث يكمن التناقض ، وما عدا هذا من فكر ودين وعلاقات هو انعكاس للصراع داخل المادة.

وتطبيقاً لذلك جاء في النظرية الماركسية أن هناك دائما تناقض ما بين أدوات الإنتاج المتطورة دائما (نتيجة الجدل) وبين علاقات الإنتاج المتخلفة عنها مما ينتج عنه صراع حتمي يؤدي إلى التغيير الاجتماعي والتطور فننتقل من الرأسمالية والى الاشتراكية ثم المرحلة الشيوعية.

٣- المنهج الإسلامي

قدم المنهج الاسلامى لحل هذا التناقض مفهوم محدد لطبيعة سير الأمور وتطورها في الحياة.

يتكون هذا المفهوم من شقين اتفق العلماء على الأول واختلفوا في الثاني:

- الشق الأول:

هو أن المنهج الإسلامي في التغيير الاجتماعي يقوم على وسيلة أساسية أولى وهي التسليم بحتمية وجود سنن تحكم حركة الكون.

- الشق الثاني:

حين اختلف العلماء في تفسير العلاقة بين حتمية وجود قانون وبين إرادة الإنسان وحدث الانقسام:

- ١- فريق فلسفته جبرية : وهو فريق الغى إرادة الإنسان أو قدرته على الاختيار أو الفعل نتيجة وجود مقدر إلهية هي المشرعة لسنن الوجود وهي المتحكمة في كل الأفعال والتصرفات الصادرة عن الإنسان.
- ٢- فريق فلسفته قدرية: وهو فريق يقول انه بالتسليم بوجود سنن وقوانين فإن الإنسان في إطار معرفته بها والانضباط بها يعمل على تحديد اختياراته وأفعاله.

نقد التراث العلمي السابق: (القصور في المناهج السابقة)

هناك نقد اساسى يوجهه الكاتب للمناهج السابقة ، وهو أنها جميعا بدأت من فرضية أو فكرة ميتافيزيقية وانتهت إلى فرض نوع من الجبرية على حركة الإنسان وتطور المجتمع بدلاً من حل التناقض الموجود، وذلك كما يلي:

١ - القصور بالمنهج الليبرالي :

قصر إرادة الإنسان على تحقيق مصلحته الشخصية هو فقط ، وجعله مجبر على ذلك لأن تلقائية التطور التي يتبناها المنهج تجعل إرادة الإنسان سلبية بالنسبة للتغيير الاجتماعى، فهولا يستطيع التوقف عن تحقيق مصلحته الشخصية وغير مسئول عن تحقيق مصلحة اجتماعية شاملة اى انه خاضع في حركته لـ " جبرية التلقائية".

٢ - جدلية ماركس المادية

فرضت الجبرية من خلال قولها أن التناقض والجدل بين النقيضين يحدث داخل المادة، فالتطور يبدأ منها وكأنها بناء تحتى، وكل ما هو غير ذلك من علاقات و ثقافة إنسانية مجرد انعكاس وبناء فوقى، اى أنها فرضت على الإنسان " جبرية المادة".

٣- المنهج الاسلامى:

الفريق الأول بفلسفته فرض على الإنسان أن يتبع سنن الوجود ولكن من منطلق ان الكون يتحرك وفق رؤية إلهية عليا والإنسان خاضع لها ولا يملك لنفسه أو لمجتمعه خيار، وبهذا سلب الإنسان إرادته وفرض عليه " جبرية المشيئة". أما الفريق الثاني وبرغم توفيقه واستطاعته تعدى التناقض، ولكن للأسف لا يوجد أمامنا الآن اجتهاد حقيقي متكامل يجعلنا نقول إننا أمام رؤية إسلامية لمنهج علمي في التغيير الاجتماعى.

- وبهذا يقف الكاتب على أول درجة لبناء استنتاجه أو إضافته لمناهج التغيير العالمية فيقول :

في سبيل بحثنا عن منهج علمي للتغيير جعلنا التناقض بين الإرادة وحتمية القوانين وانضباطها ماثلاً أمامنا، ورأينا إننا في حاجة لمنطق يحقق التوازن دون أن يفرض على الإنسان اى نوع من الجبرية سواء كانت تلقائية أو مثالية أو مادية أو مشيئية أو غيرها.

ووضحنا الفرق ما بين :

- الحتمية : وهى احد صفات كلمة القانون بمعنى انه دائماً يحدث سواء أدركه العقل أو لم يدركه، إلا أن إدراكه وفهم شروطه فعاليته يجعل العقل يضع اختبارات وفق معطيات صحيحة.

- الجبرية: وهى تعنى أن القوانين سلطة تجعل دور العقل قاصر على استيعابها فقط ، ولا يتعدى إلى تكييفها أو التحكم في شروط فعاليتها بغرض تنفيذ رؤية محددة.

وبهذا يكمن صياغة محاولتنا لتطوير مناهج التطور الجدلي تحت مسمى " جدل الإنسان".

وهو يضم :

١- أصلاً مسبقاً

٢- إضافة تهدف لحل التناقض دون الوقوع في نوع جديد من الجبرية.

٣- تصحح قانون الجدل

٤- وتحل مشكلة المنهج

٥ - وتنتهى إلى صيغة جديدة قابلة للاختبار.

- أما تعريفه، فهو:

١- في الإنسان نفسه يتناقض الماضي والمستقبل ويتولى كل فرد حل التناقض داخله بالعمل، وهذا العمل هو إضافة فيها من الماضي والمستقبل ولكن تتجاوزها إلى خلق جديد، فالإنسان كيان مشترك من (المادة + الذكاء) وفى ظل إمكانياته وواقعه يأتي بهذا الجديد.

٢- والواقع الاجتماعي هو ما يسهم في إثارة المشاكل ، لأن الواقع (حصيلة الماضي) الذي يتناقض مع ما يريده الإنسان .

وبهذا يكون الكاتب قد نجح في شرح كيف يقود الإنسان حركة تطور حياته داخل المجتمع، ولكنه لم يفسر لنا كيف يعمل هذا القانون في صيغته الاجتماعية ، وهل هو قادر على شرح كيف تتطور المجتمعات... فيقول

١- أن كل مشكلة يواجهها الإنسان هي ابنة واقع اجتماعي معين، وهذا يعنى انه لا توجد مشكلات خاصة، فكل المشكلات التي يواجهها اى إنسان في حياته هي مشكلات اجتماعية في حقيقتها الموضوعية اى لا يمكن فهمها إلا فى ضوء الواقع الاجتماعي الذي يساهم في إثارته .

٢- وما دام الواقع الاجتماعي محدد موضوعياً فأن الحل الصحيح لأي مشكلة اجتماعية محدد موضوعياً أيضاً، ومؤدى هذا أن كل مشكلة اجتماعية لها حقيقة هامة واحدة مهما اختلف فهم الناس لها وان اى مشكلة ليس لها إلا حل صحيح واحد في واقع اجتماعي معين.

٣- إن الإنسان ينجح في شق طريقه إلى الحرية بنجاح بقدر ما يكتشف ذلك الحل الصحيح الاجتماعي وينفذه، ويفشل في تحقيق ذلك بقدر ما يجهل ذلك الحل الموضوعي.

٤ - و مادام الواقع الاجتماعي الذي يثير المشكلات محددأ موضوعياً، فأن الناس في اى مجتمع و بحكم أنهم بشر لا يكفون ولا يستطيعون أن يكفوا عن معاناة مشكلاتهم حتى لو لم يعرفوا حقيقتها الاجتماعية، لا

يكفون ولا يستطيعون أن يكفوا عن العمل الذهني و المادي الذي يعتقدون انه يحل مشكلاتهم حتى لو لم يكن هو العمل المناسب لحل تلك المشكلات.

٥ - اشترك الناس إذا في محاولات تغيير الواقع الاجتماعي قضية حتمية لابد منها ، و تبقى الأزمة في ما إذا كان هذا النشاط الذي يقوم به الناس يؤدي إلى حل مشكلاتهم فعلا أم انه يبدد طاقتهم دون جدوى .

٦ - والاحتمال الأخير يحدث عندما يكون الناس متخلفين في المقدرة على معرفة الحقيقة الموضوعية للمشكلات والحلول الصحيحة لها، وهو ما يعنى أن تخلفهم ذاته يكون واقعا اجتماعيا فيثير مشكلة اجتماعية جديدة مصدرها التناقض الكامن في أنفسهم بين واقع عجزهم عن معرفة الحقيقة وإرادتهم في معرفتها.

انتهى الشرح التفصيلي من ثم يجمع الكاتب أفكاره ويضع صيغته لقانونه الذي اهتدى له نتيجة البحث، يقول إذا أردنا أن نجمع كل ما عرفناه من قوانين التطور الاجتماعي في صيغة واحدة فتكون :

" (١) في الكل الشامل للطبيعة والإنسان (٢) كل شيء مؤثر في غيره متأثر به، (٣) كل شيء في حركة دائمة، (٤) كل شيء في تغير مستمر، (٥) وفي إطار هذه القوانين الكلية الثلاث يتحول كل شيء طبقاً لقانونه النوعي، (٦) وينفرد الإنسان بالجدل قانوناً نوعياً لتطوره، (٧) ففي الإنسان نفسه يتناقض الماضي والمستقبل، (٨) ويتولى الإنسان نفسه حل التناقض بالعمل، (٩) إضافة فيها من الماضي والمستقبل، (١٠) ولكن تتجاوزها إلى خلق جديد".

كلمة هامة.. وليست أخيرة
اهتم الكاتب بتسجيلها قبل العودة إلى السؤال الأول الذي حركه وقد حير عقول أمة كاملة ، وهو كيف نغير واقعنا.

يجيب الكاتب على هذا السؤال ويضع نظريته للتغيير بأركانها الثلاث " منطلق - غاية - أسلوب " كتطبيق لهذا المنهج ومحاولة لاختبار صحته، ولكنه قبل أن يبدأ في دومة التطبيق النظري يقول وينبه:

" قد نجد منهج جدل الإنسان معقداً في صيغته غير أن هذا لا ينبغي أن ينسينا أننا تعلمنا منه دروساً تبدو بديهية من فرط صدقها مع خبرتنا المترامية من الممارسة، وقد تغرينا تلك البداهة فنستغني بها عن المنهج، عندئذ نرتكب خطأ جسيماً، لأن البداهة ليست طريقاً علمياً إلى المعرفة .. وإنما يبدو الأمر لأي منا بديهياً على ضوء خبرتها الذاتية المترامية فيبدو له صحيحاً إلى الدرجة التي لا تحتاج إلى البحث لمعرفة لماذا هو صحيح، فان كانت تلك الدروس تبدو لنا بديهية فلأن جدل الإنسان كقانون يضبط حركتنا حتى بدون أن نعرفه وليست خبرتنا المترامية التي نرى على ضوءها أن تلك دروس بديهية إلا ثمرة فعالية جدل الإنسان فينا، غير انه يبقى صحيحاً أن الاهتمام إلى البداهة خطأ، أن اختلفنا فيها نفترق ولا بد أن نفترق، لأن الناس لا يستوون في خبراتهم الذاتية، وما يكون صحيح بالبداهة عند واحد يكون خطأ بالبداهة أيضاً عند آخر، أن الاحتكام إلى الحقائق الموضوعية هو وحده الذي يحفظ الوحدة بين الناس فلا يفترقون ولو اختلفوا رأياً، يقيناً منهم بأنه ما دامت الحقائق الموضوعية فإن معرفتها معرفة صحيحة، بالبحث العلمي والحوار كقيلة بأن تنهى الخلاف في الرأي، وان كان فيما نقوله عودة على بدء فهي هامة وأساسية قبل أن نجتهد لنصوغ نظرية تغيير واقعنا"

حاولنا في بداية حديثنا الاهتداء بخطوات البحث العلمي وانتهينا عند استخلاص قانون ومعرفة شروط فعاليته، ومنتقل الآن إلى تطبيقه مع عرض أولى أركان نظرية الثورة العربية وهي المنطلقات .. و يختصرها الكاتب - كما قلنا سابقاً - في سؤال واحد هو .. من نحن؟..

وقد شغل هذا السؤال فكر الكثيرين وأدى اختلاف الإجابة في اغلب الظن إلى تفرقنا.. فهل مجتمعنا هو مصر أم مجتمعنا هو الوطن العربي أم الأراضي الإسلامية في اى مكان؟

يقول الكاتب في ظل كل هذه الاحتمالات المفتوحة، لا بد لنا أن نبدأ من حقيقة مؤكدة وهو أننا نحيا في دولة رسم الاستعمار حدودها السياسية، وان التحديد الموضوعي لحقيقة هذا المجتمع يأتي نتيجة المعرفة العلمية لكيفية تكون وتطور المجتمعات البشرية ومن ثم تطبيق ذلك على واقعنا والتعرف في اى تلك الأطوار نقع.. وما يفرضه علينا هذا الواقع؟

وطبقاً للنهج العلمي الذي ارتضاه الكاتب في بحثه من البداية.. يقول

" إذا اتفقنا أن جدل الإنسان هو منهجنا لاكتشاف الحل الموضوعي لأي مشكلة يفرضها الواقع الاجتماعي على الإنسان، وذلك من خلال تحقيق إضافة تحمل من الماضي والمستقبل . فهو بذلك يكون المرشد الصحيح لمعرفة ماهى المشكلة الاجتماعية التي أراد الإنسان حلها ولذلك عاش في مجتمع وليس منفردا وكيف تطورت أبعاد تلك المشكلة وتتطور معها شكل المجتمع؟".

تأتي الإجابة بأن هناك مشكلة أولية واجهت الإنسان و تطورت معه وظهرت إلى جانبها كثير من المشكلات الأخرى ألا وهي "حفظ النوع".

حاول الإنسان دائما حل مشكلته من خلال اجتماعه مع آخرين، وكانت أهم النتائج إلى ترتبت على ذلك الاجتماع هي اللغة، وقد اهتدى الإنسان إليها لحل مشكلات اتضح أنه لا يواجهها وحده بل يشاركه فيها الجميع مثل الحاجة إلى المأكل والملبس والأمن.

وبمرور الوقت خلقت المشكلات الأولية وحولها مشكلات أكثر تعقيداً، أما الحقيقة الوحيدة التي ظلت تجمعها جميعاً أنها شاملة وليست فردية.

أدى تطور المشكلات التي تطور شكل المجتمع، فان دفعت مشكلة حفظ النوع إلى الارتباط بين ذوى الدم واحد فقد تطور الأمر والصعاب لتتنشأ الأسر ثم العشائر تلتها القبيلة، والملاحظ أن كل طور يأتي نتيجة عجز الطور السابق له على إيجاد حل لمشكلات جديدة أكثر تعقيداً، والمشكلات لا تنتهي وهكذا حركة تطور المجتمعات.

ولمزيد من الإيضاح يضرب لنا المثل التالي:

في ظل الاحتياج بدأت القبائل بعد وصولها بهذا الطور لأعلى مراحلها واتحدت للحصول على الماء والمأكل ومحاربة من يزارحها فيه، اهتمت بتقوية نفسها وضم القبائل الأصغر إليها، كما خلقت ما يميزها من أعراف وتقاليد ومعبود خاص و ... دون أن تعي ذلك في خلق حضارات واسعة أدت في النهاية إلى الانتقال إلى طور الشعب، ولكن وخلال الانتقال والارتقاء الذي يتسابق ويتلاحق ولا يتساوى فيه الجميع،

واجهت القبائل والشعوب الناشئة مشكلة أخرى وهى حاجتها إلى الاستقرار والاختصاص بجزء من الأرض.

أدت الحاجة إلى الاستقرار إلى عدة نتائج...

أولها : مزيد من التلاحم والتفاعل بين الشعوب والقبائل الباحثة عن الأمن المشترك. وثانيها: مزيد من التفاعل بين هؤلاء والأرض التي يقيموا عليها، وبمرور مدة زمنية طويلة بدأ يتحقق الاستقرار المنشود و صاحبه إنتاج موروث مادي وثقافي خاص يحمل من خصائص هؤلاء البشر مجتمعين ومن خصائص الأرض التي يقيموا عليها، اى بدءوا في تكوين خصائص طور جديد من تطور المجتمعات ألا وهو "الأمة".

- وتعتبر الأمة اعلى المراحل التي وصلت لها مسيرة تطور المجتمعات حتى الآن وتعني "اختصاص شعب معين بجزء من الأرض لفترات طويلة غير منقطعة أدى إلى تكوين موروث ثقافي ومادي خاص مميز، وهو ما يجعلها قادرة على مواجهة وقهر اى نزاع داخلي أو خارجي يهدف إلى :

١ - تفريق تلك المجموعات البشرية المكونة للأمة

٢ - فصل هذا الشعب عن الأرض التي يختص بها

ويتضح هذا المعنى في كثير من الأمثلة التي مرت علينا أو نعيشها ، فلم يؤدي احتلال أمة يوماً ما إلى محوها مهما طال أمده أو زاد ضعفها.. وتبقى فلسطين العربية المحتلة منذ ٤٨ دليل على ذلك، ويتضح هذا المعنى أيضا مع تجربة قبائل الهنود الحمر المريرة التي لم تكن قد وصلت بعد لطور الأمة وملكت أدواتها فلم تستطع أن تواجه الاستيطان الأنجلو أمريكي .

ومن ناحية أخرى قد نرى في تجربة الشراكة في أوروبا أو مابين النمرور الآسيوية وغيرها سبيل لتطور اكبر بعد أن نجحت تلك المجتمعات في استنفاد إمكانيات طور الأمة الذي تعيش فيه بطريقة فعالة.

يتوقف الكاتب عن الشرح ويتنقل إلى واقعنا والتطبيق، فيقول :

بتطبيق تلك النظرية "كيف تتشكل المجتمعات " التي نستدل على صحتها وفقاً لمنهجنا في التغيير " جدل الإنسان" يمكننا الرجوع إلى مرجعنا وتحديد حقيقة مجتمعنا وما هي حدوده التاريخية والجغرافية..

فوفقاً لما سبق لا نكون إلا امة عربية تكونت من الشعب العربي فوق الوطن العربي ويمكننا توضيح كيف وصل الكاتب إلى قول هذا بشكل علمي ووفقاً لمنهجه :

يقول الكاتب لو أخذنا اصغر دائرة تحيط بكل فرد عربي ألا وهى دولته السياسية، فيمكننا اخذ من الدول العربية جمهورية مصر كمثال لذلك ونقول :

١ - حول ضفاف النيل تجمعت على مدار التاريخ جماعات بشرية من قبائل و شعوب ذات حضارات مختلفة، إلا أن كل منها لم يستطع الاستمرار والاختصاص وحده بهذه الأرض، وأصبحت كلمة السكان الأصليين تشير إلى نسيج متداخل.

٢ - استمر هذا الوضع المتذبذب إلى أن دخلت القبائل والجماعات الموجودة على ارض مصر مرحلة جديدة بدأت بانضمامها لدولة الخلافة الإسلامية واستمرت حتى نهاية الحكم العثماني.

٣ - خرج المجتمع من هذه المرحلة مرتبط حضارياً بالقبائل والشعوب الممتدة على ارض الفرات والشام والمغرب والجزيرة، خرجت جميعاً في إطار جديد يضمها معاً هو "الأمة العربية".

٤ - وقد بدأت هذه الأمة في مناطقها المختلفة مرحلة نمو جديد، تجمعت حول الإسلام كعنصر حضاري أساسي في تشكيل هويتها، وبانتهاء السلطة الإمبراطورية وجدنا على هذه الرقعة من الأرض أمم مختلفة أغلبها قديم اكتسب عنصر جديد في هويته (وهو الإسلام) ونرى ذلك في حالة الأمة الفارسية والتركية، وهنا ولدت امة جديدة تتكون من شعب عربي استقر على الأرض العربية وأنتج حضارة عربية إسلامية خاصة بها وتجمعها وهذه الأمم الأخرى قاسم مشترك كبير هو "الإسلام" يسمح لها بنطاق أوسع للتواصل.

ينتقل بنا الكاتب إلى نتيجة أهم .. وهى ما يترتب على كوننا مجتمع قومي، فيقول :

١ - إننا في إطار حركة دائمة من التطور، وهى حتمية يقودها الإنسان ولا يستطيع التوقف عنها، مما يعنى عدم القدرة عن الرجوع من طور الأمة إلى ما أدنى منه هذا بالرغم مما نحيا فيه من تجزئة.

٢ - و مازلنا في إطار هذا الطور، ووجود مشكلات في واقعنا القومي تعني إننا لم نصل للحل الموضوعي نتيجة عجزنا عن توظيف للإمكانيات التي يتيحها هذا الظرف الاجتماعي التاريخي المسمى " الواقع القومي"، ولا يمكننا الانتقال إلى طور أكثر تقدماً دون استنفاد جميع إمكانيات هذا الطور الذي مازلنا نحيا به.

أى أن تلك الحقائق تلزمنا بالتزام المنظور القومي للوصول لحل مشكلات مجتمعنا وهذا ، ويختصر الكاتب ذلك في هدفين لا بد من وضعهما إزاء العين دائماً..

١ - وحدة الوجود القومي "إثبات"

٢ - وحدة المصير القومي " نتيجة"

وقد يصل بنا الكاتب بعد هذا الإثبات وهذه النتيجة إلى الصيغة الأكثر قوة وعملية وهى " وحدة الدولة القومية".

وذلك لأن الدولة الواحدة في تلك الحالة تمثل السيادة القانونية لكل الشعب العربي فوق الأرض العربية مما يعنى أنها الأداة الأمثل لتوظيف جميع الإمكانيات القومية لحل مشكلات الواقع القومي.

ويضيف أن التأكد من حقيقة الوجود القومي العربي والاكتشاف العلمي لوحدة المصير القومي تعنى التزامه والتأكيد على أن القومية ليست رابطة سلبية بل هي المنطلق لوجود حركة تقدمية تعمل على تطوير الواقع من خلال الوصول للحلول المثلى الموضوعية نتيجة التوظيف الكامل للإمكانيات القومية.

ينتقل بنا الكاتب بعد هذا التأسيس لحديثه إلى مستوى آخر هو اقرب إلى التحوار مع التساؤلات التي تصاحب دائماً الحديث عن القومية، وهو أسئلة يسعى الكاتب من خلالها تحديد موقف الرابطة القومية من:

١ - الجماعات الخارجة عنها

٢ - الجماعات الداخلة فيها

ونبدأ أولاً مع الكاتب في مناقشة العلاقة بين القومية والجماعات الخارجة عنها

١- القومية والإنسانية:

و يقول الكاتب عنها:

أن علاقة القومية بالإنسانية هي علاقة الجزء بالكل، فالعالم الإنساني هو المجتمع الاشملى ويجمع أفراده صفة أولية هي الإنسانية.

فهذا العالم يشتمل عبر امتداده وتطوره على جماعات إنسانية مختلفة الحضارات والثقافات، و يضم عدد من الأمم ذات الطابع القومي المميز لكل منها.

وبهذا تسير العلاقة بين القومية والإنسانية في اتجاهين:

- أن كل أمة تتعامل مع باقي العالم الإنساني من واقع ما يتفق وواقعها القومي
- أن كل أمة تتفاعل وتتأثر بالواقع العالمي ككل على أساس انه مجتمع يصل بين كل الشعوب والأمم (منضبطة بحدود القضايا التي تمس المجموعة الإنسانية ككل) ويورد الكاتب مثال عن تلك العلاقة في : مشكلة السلام العالمي - التسامح النووي

٢ - عن القومية والإسلام

يبدأ الكاتب بتعريف كل من الدين والقومية:

الدين: هي رسالة سماوية وعلاقة بين الإنسان وربه أرسلها لتنظيم حياته.
أما القومية: هي رابطة تاريخية واقعة بين مجموعة من البشر على جزء من الأرض و تضيف تلك الرابطة بعد خاص على قضايا واقع هؤلاء البشر.

وان قلنا الإسلام والأمة العربية فهذا يحتاج إلى إضافة خاصة ..

فالإسلام رسالة سماوية تختص بها الأديان الأخرى وهي رسالة تشمل جميع البشر و لا تخص جماعات بعينها.

أما الأمة العربية فهي تتفرد بعلاقة خاصة بالدين الإسلامى فقد انتشرت الرسالة بين الأراضي العربية، واشتدت هذه المناطق وقويت مع ما أحدثه الإسلام كحد تعبير الكاتب من ثورة اجتماعية أصابت أول ما أصابت هؤلاء الناس واستمر بهم الحال ليشكلوا أمة كاملة النمو ذات حضارة عربية إسلامية.

ومع ذلك يؤكد الكاتب أن كوننا أمة عربية ذات حضارة إسلامية لا يعنى:

- أن القومية تلغى الإسلام :
لأنه دين للبشر جميعا لا تؤثر اختلاف القوميات وتنوعها على طبيعة رسالته.

- أو أن الإسلام يلغى القومية :

لأن الإسلام وان كان رسالة توضح النظام الذي يجب أن تسير عليه الحياة البشرية ، فالقومية هي إطار خاص بمجموعة معينة من البشر تكون تاريخياً ويتم بداخله وضع نظم الحياة.

ويأخذ الكاتب على ذلك، قول الله تعالى ...
(أن خلقناكم شعوباً وقبائل لتتعارفوا أن أكرمكم عند الله اتقاكم)
ويقول من واقع فهمه للنص .. أن الله خلق الحياة ضامة شعوب وأمم مختلفة نتيجة تطور تاريخيا ومن ثم أرسل بالرسالة العامة التي تنظم سبل الحياة لأي كان ويتضح من خلال هذه الرسالة المتكاملة مدى استقامة مسيرة أمة من أخرى بهذا العالم.

٣- القومية والأممية

و يقول الكاتب عنها:

أن الأممية مقولة ماركسية تعنى وحدة الطبقة العاملة في العالم بصرف النظر عن انتماءاتها القومية.

ويحاول الكاتب توضيح مدى الاختلاف بين الرابطتين..
فيقول أن الأممية حركة عالمية ظهرت لمواجهة خطر عالمي هو الامبريالية التي تعمل على استغلال العمالة في اى مكان بغض النظر عن انتماءات أصحابها القومية.

اي انه وطبقاً لجدل الإنسان تكون الأممية طرح عالمي خاص بمشكلة عالمية كبرى لا يمكن مواجهتها إلا بتوظيف جميع الإمكانيات العالمية بغض النظر عن الانتماءات القومية، وتبقى بالطبع حل مرحلي ونسبي لديه أسس عامة ولكنه يتأثر ويطوع وفق خصائص كل امة على حدى .

ولكن أن يعنى الماركسيون من خلال تلك المقولة رفض الرابطة القومية من اجل تحقيق حركة عالمية فهو أمر لا يملك قائله تفسيره .

فلا يمكن لحركة واحدة عامة أن تقدم حل واحد لمشكلات قد تتشابه ولكنها تتفاوت في درجتها وطبيعتها وهذا التفاوت يجعل لكل مشكلة واقعها الخاص.

ويتحدث الكاتب من التاريخ فيقول أن هذه الحركة لم تستطع بالفعل أن تحل مشاكل العمال التابعين للأمم المختلفة، بل أن الأمر قد يصل إلى تضارب مصالح العمال أو قائدي تلك الحركة كما حدث بين الاتحاد السوفييتي والصين.

ينتقل الكاتب لمناقشة علاقة القومية بالجماعات الداخلة فيها:

٤- الأمة والطبقة :

يبدأ الكاتب بتحديد معنى الكلمة فيقول أنها مجموعة من الأفراد تجمعهم رابطة تحدد موقفهم من عملية التغيير، اي أن هذا التعريف أو غيره من التعريفات الماركسية يشير إلى أن اي مجتمع مهما كان طوره يضم طبقات أو جماعات تهدف كل منها إلى تغيير واقعهم المشترك بشكل يحقق مصلحتها هي بشكل أساسي.

ولكن وكيف تكون العلاقة بين الرابطين، يقول الكاتب..

طبقاً لجدل الإنسان تتطور المجتمعات من خلال الجدل الدائر داخلها المتعلق بالبحث عن حياة أفضل، وهو ما يؤدي إلى صراع متعدد الأبعاد والمستويات داخل وخارج المجتمع .

ويأخذ الكاتب الطور القبلي مثال لتوضيح الصراع داخل المجتمع من اجل تطويره فيقول داخل الطور القبلي يكون هناك صراع بين القبائل متعدد الأبعاد.

- صراع ضد ظروف الطبيعية لانتزاع إمكانيات الحياة من الأرض .
- صراع اجتماعي ضد بعضها البعض دفاعاً عن تلك الإمكانيات وفرض سيطرة البعض بها.
- صراع خارجي ضد المهاجمين والغزاة المشتركين .
وبينما يستمر الصراع الداخلي على وجه لا يخفى ميراثه القبلي تكون الأمة قد بدأت في التكوين ويدل على هذا انه عادة ما يتم مواجهة العدو الخارجي لا بحلف قبلي ولكن كقوة موحدة دفاعاً عن الأرض المشتركة.

ويحاول الكاتب من خلال هذا المثال القول:

بأن الصراع الاجتماعي حقيقة لا تنكر متى قامت أسبابها في المجتمع القومي، ولا يوجد في الحديث عن الأمة والقومية الواحدة والمصير الواحد ما يعني وحدة كل القوى وتجاهل الصراع الاجتماعي.

ولكن نرى فيه إدارة جديدة لقوى الصراع الاجتماعي أو إدراكاً جديداً يمكن تسميته بالنظرية القومية في الصراع الاجتماعي.

فأي مشكلة في واقعنا تكون ذات إطار اجتماعي ويؤدي حلها إلى التطور من خلال توظيف جميع إمكانيات المجتمع للوصول للحل الموضوعي .

وبهذا يمكن تصنيف المجتمع إلى :

(قوى رجعية): وهم يدركون تناقض مصالحهم الخاصة مع الحل القومي فيدافعون عنها بإبقاء الواقع كما هو عليه ويقفوا ضد التطور كما كان دائماً من عملاء الإستعمار.

(قوى تقدمية): هم من يقنعوا بالحل التقدمي ويدركوا انه لا يمكن أحداث تطور إلا إذا استهدف جميع أفراد الواقع القومي، لذا يناضلون ضد الرجعية ويلتزمون بالدخول في صراع اجتماعي معها.

٥- القومية والإقليمية

وهي من أهم النقاط التي يجب مناقشتها عند الطرح للنظرية القومية وذلك لأنها أهم الحواجز في طريق تطور الأمة العربية.

وان كانت عائق فلا بد للنظرية من التحدث عن التزام القوى التقدمية بالدخول في صراع اجتماعي ضد القوى الرجعية التي تفرض تلك الإقليمية.

يتناول الكاتب مناقشة تلك النقطة من خلال التفريق ما بين كلمة الإقليم ودلالة الكلمة وتوظيفها حالياً في الوطن العربي، فيقول أن كلمة الإقليم هي تعبير عن مكان ذو تمييز جغرافي أو طوبغرافي، ولكنه على أي حال لا يتضمن في ذاته مفهوماً اجتماعياً أو سياسياً خاصاً.

فالكلمة في الأصل تشير إلى وطن واحد يشمل أقسام متعددة، ولكنها تكتسب دلالة خاصة في أرضنا، فالأقاليم بالوطن العربي هي تلك الخطوط التي وضعها الاستعمار ليفتت الوطن الواحد ويفصل الأجزاء عن الكل إلى أن يتلاشى هذا الكل تماماً، وأصبحنا جماعات بشرية متميزة بانتمائها السياسي إلى دولة إقليمية.

أي أن دلالة الإقليم في الوطن العربي تتجاوز التوصيف الجغرافي لتصبح علاقة بين الأقاليم مضمونها أن كل دولة عربية هي تكوين اجتماعي قائم بذاته مستقل بمصيره أي تصبح إقليمية.

وبذلك تضيء الإقليمية على متبنيها موقف مضاد للوحدة، مدافع عن التواجد الجزئي لكل إقليم، وبذلك تكون الإقليمية على حد تعبير الكاتب رابطة تضم كل الإقليميين الذين يقبلون التجزئة ويضعهم جميعاً في مواجهة الشعب العربي في موقف مضاد لوحدته القومية.

٦- المؤسسات الإقليمية:

وهي التجسيد السياسي الشامل للتجزئة.

والتعامل ما بين الدول الإقليمية يبنى على أساس القبول المشترك للتجزئة والمثال الحي لهذا التعامل هو (جامعة الدول العربية) المؤسسة الإقليمية التي يلتقي بها ممثلو تلك الدول لمحاولة حل المشكلات المشتركة بين دولهم حلاً يحافظ على المصالح الإقليمية .. أي حل المشكلات في إطار الالتزام باحترام تجزئة الأمة العربية.

والدول الإقليمية هي أحد أشخاص القانون الدولي العام ، وهي ملتزمة بأحكامه في حركتها الخارجية وتعاملها مع الدول الأخرى وهي ملتزمة بأحكامه في حركتها الداخلية وتعاملها مع رعاياها.

أي أنه ومهما كانت اتجاهات قيادات تلك الدول وشعورها بقوميتها فإنها لا تستطيع إلا أن تشارك في الأمور العربية من منطلق كونها دولة صغيرة ومستقلة مهما اتجهت القيادات بها إلى أفاق قومية، فهي لا يمكن أن توظف إمكانياتها وتطورها إلا في إطار واقعها الإقليمي.

وستبقى الدولة الإقليمية في حدود الالتزامات الدولية تعجز عن تمثيل الأمة العربية، ولا يمكنها إلا أن تمثل الجزء الذي نقيم فيه، وفي حدود الالتزامات الداخلية تعجز عن حماية أو تطوير المصالح القومية ولا يمكنها إلا أن تحمي وتطور فقط من مصالحها الإقليمية.

٧- القومية والأقليات

ويتوقف الكاتب مع مشكلة أخيرة يرى بها محك لاختبار صحة النظرية القومية..
تفترق تلك القضية بين صحة وعدم صحة النظريات العديدة في القومية
فهي تناقش أن تكون داخل الدولة القومية الواحدة جزء من أمة خارجها أو تقول أنها أمة مستقلة.

والنظرية القومية الصحيحة هي التي تنظر الى مشكلة الأقليات على أنها مشكلة تحرر قومي، اى من المهم أن تقف من الواقع موقف عقائدي ثابت في كل الأحوال مهما جاءت في ظاهرها منافية لمصلحتنا.

انتهى العرض الموجز السريع للمنطلقات هادفاً للوقوف على أهم المرتكزات الفكرية لنظرية الثورة العربية ولكنه بالطبع - هذا العرض - لا يمكن أن يكون بديل لقراءة الأصل ونتمنى أن يكون دافع لذلك.

منى سليم
* صحفية وباحثة في الإعلام والعلوم الاجتماعية